الملك عبدالعزيز
حتى بداية حكمه

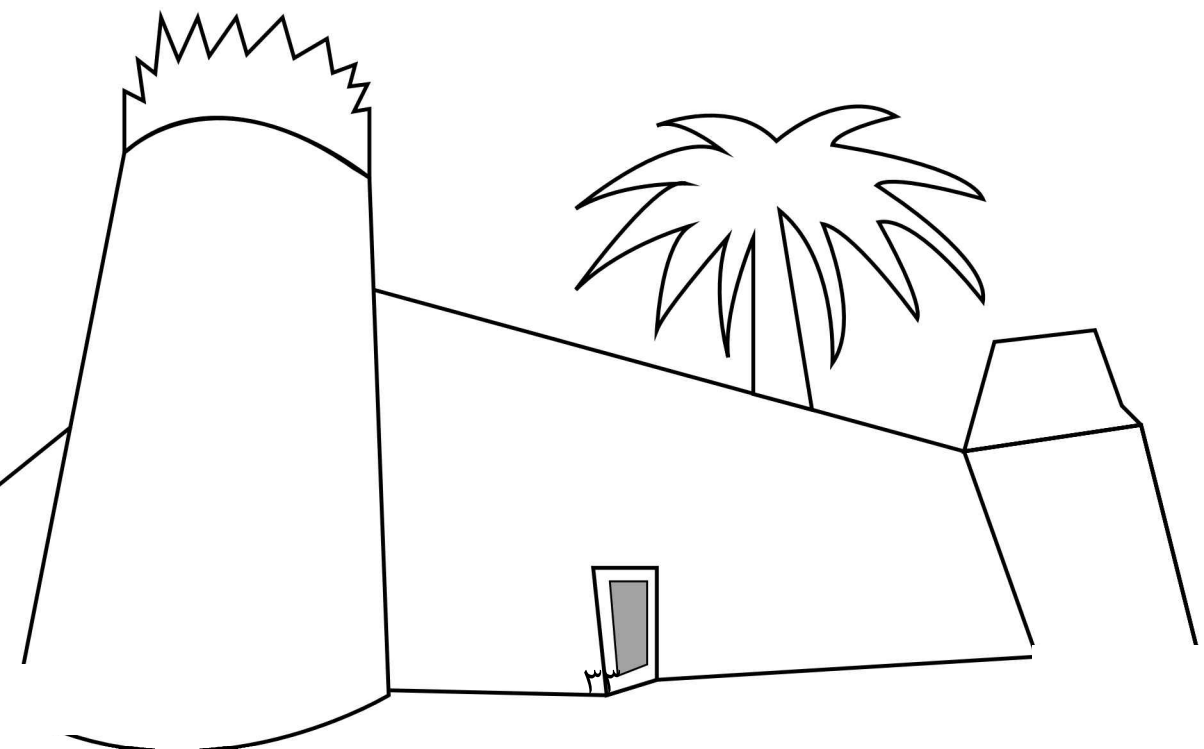

١- مولد الملك عبدالعزيز ونشأته:

الملك عبدالعزيز هو: عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود. وُلِد في الرياض وشمس أصيل الدولة السعودية الثانية تدنو شيئًا فشيئًا إلى الغروب. وتختلف الروايات في تحديد السنة التي وُلِد فيها. فواحدة تقول: إنه وُلِد سنة ١٢٨٥هـ[١]. وثانية تذكر أن مولده كان عام ١٢٩٣هـ[٢]. وثالثة تشير إلى أنه كان سنة ١٢٩٥هـ[٣]. ورابعة تُحدِّده بعام ١٢٩٦هـ[٤]. وخامسة تجعله عام ١٢٩٧هـ[٥]. على أن الزركلي رَجَّح أنه وُلِد سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م؛ استنادًا على ما ذكره له الأمير عبدالله بن عبدالرحمن، أخو الملك عبدالعزيز، الذي كان مُلِمًّا بتاريخ أسرته، وقرائن أخرى[٦].

وقد نشأ الملك عبدالعزيز نشأة كثير من أفراد الأسرة السعودية الذين عاصروه، أو سبقوه، وتَأدَّب بالآداب المتوارثة لديها. وكانت هذه الأسرة تجمع بين كونها أسرة حكم عربية الأصل والتقاليد، وكونها أسرة أقامت حكمها على أساس ديني هدفه الواضح مناصرة العقيدة التي نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وتطبيق الشريعة الغَرَّاء. ولذلك كان عليه أن يكتسب المهارات التي لا بد أن يتقنها

---

(١) نقل هذه الرواية الزركلي (ج١، ص٥٨) عن العالم محمد نصيف. لكنه قارن هذا التاريخ الهجري بعام ١٨٧٦م. وواضح أن المقارنة خطأ. فسنة ١٢٨٥هـ يقابلها عام ١٨٦٨م. على أن الزركلي استبعد صحة هذه الرواية على أي حال.

وذكر موزل أن مولد الملك عبدالعزيز كان سنة ١٨٦٧م؛ أي ١٢٨٤هـ. انظر كتابه الذي ترجمة عنوانه **شمالي نجد**، نيويورك، ١٩٢٨م، ص٣٠١.

(٢) الزركلي، ج١، ص٥٦.

(٣) محمد العلي العُبيِّد، **النجم اللامع للنوادر جامع**، مخطوطة لدى أقارب مؤلفه، ص١١٨.

(٤) آل عبدالقادر، ج١، ص١٩٢.

(٥) الريحاني، ص١٠٧؛ حمزة، **قلب جزيرة العرب**، ص٣٦١.

(٦) الزركلي، ج١، ص٥٨.

ناشئة الأسر العربية الحاكمة حينذاك؛ مثل الرماية، وركوب الخيل، وأساليب الكَرِّ والفَرِّ. وقد اكتسب من تلك المهارات ما كان جديرًا بمثله أن يكتسبه، وهو ما زال صغير السن. وكان عليه أن يعرف تقاليد تلك الأسر المُتوارثة ويمارسها. فعرفها ومارسها بشكل جَيِّد وكان عليه أيضًا، أن يعلم أصول العقيدة التي يجب على كل مسلم أن يعلمها، والتي قام حكم أسرته بالذات على أساسها، فَتحقَّق له ذلك. وبالإضافة إلى هذا تَعلَّم مبادئ القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم[1]. وقد وهبه الله من الذكاء ما ساعده على النجاح في كل ما سبق نجاحًا كبيرًا. وتَهيَّأ له من الظروف المحيطة بطفولته ما صقل مواهبه، وأثرى تجاربه. وإذا كانت جلساته مع القادة من أفراد أسرته والمُقرَّبين منها من علماء وزعماء قد مَكَّنته من معرفة الشيء الكثير من أمور الدين والتاريخ والأدب وقصص الأبطال قديمًا وحديثًا، فإن ما رآه من مشكلات الفرقة بين أفراد أسرته وآثارها السلبية على واقعها وواقع البلاد عامة، قد عَلَّمه الكثير من الدروس والعِبَر. واجتمعت صفاته الذاتية مع مكتسباته الحيوية الغنية لتبلور منه شخصية قيادية رائدة في مستقبل أيامه.

وكانت أَوَّل مشاركة له في الحياة السياسية العامة خروجه مع عَمِّه محمد والشيخين عبدالله ابن عبداللطيف وحمد بن فارس للتفاوض مع الأمير محمد بن رشيد عندما حاصر الرياض[2]. وكان ذلك الحصار في مُستهلِّ عام ١٣٠٨هـ[3]. وقد بقي مع والده خلال أوقاته الصعبة قبل مغادرته الرياض، ثم إبَّان تَنقُّله بين فئات بادية العُجْمان وآل مُرَّة. ولا شك أن ذلك التَّنقُّل، مهما كانت

(١) من أحسن ما كُتِب عن نشأته وطفولته كتابة الزركلي، المذكور سابقًا، ج١، ص ص ٥٧ - ٥٩.

(٢) ابن هذلول، ص٥١.

(٣) الزركلي، ج١، ص٥٥.

مدته، قد أتاح لعبدالعزيز فرصة ممارسة حياة الصحراء الصارمة، ومزاولة بعضٍ من فنونها الشاقة، مما زاد رصيد تجاربه القيادية غنى وثراء.

وكانت الكويت آخر محطة استقرار للشاب عبدالعزيز بن عبدالرحمن بعيدًا عن مسقط رأسه ومركز حكم أسرته. وكان عمره حين وصل إليها- حسب الرواية المُرجَّحة لتاريخ مولده[1]. حوالي سبعة عشر عامًا. وكان تاريخ أسرته؛ إضافة إلى ما في نفسه من طموح وما تحلَّى به من قدرات عقلية، من أكبر الدوافع التي جعلته يلازم مجالسة الزعماء والقادة في تلك البلاد، ويَتأمَّل ما يحيط بالمنطقة من تيارات سياسية ليأخذ من هذا وذاك العبر والدروس[2].

ومن المُرجَّح أن قيادة عبدالعزيز بن عبدالرحمن لفرقة من الجيش الزاحف من الكويت؛ وهي الفرقة التي دخل بها الرياض كما سبق أن ذكر، كانت أَوَّل قيادة عسكرية يَتولَّاها. ومع أنه لم يستطع اقتحام قصر المصمك الذي تَحصَّنت فيه حامية ابن رشيد، فإن دخوله تلك البلدة، وبقاءه فيها مدة، بعد غيابه عنها عشر سنوات تقريبًا، مَكَّنه من معرفة كثير من أوضاعها المستجدة واتِّجاهات أهلها. وكان مُجرَّد نجاحه في دخولها بارقة أمل في نفوس مُؤيِّدي آل سعود بعد أن خبا ذلك الأمل حقبة من الزمن. ولَعلَّ ما قام به الأمير عبدالعزيز بن رشيد -بعد انسحاب الشاب السعودي من الرياض- من إجراءات قاسية ضد بعض سكانها دليل على ما أظهره هؤلاء لذلك الشاب من مشاعر وُدِّية وتعاون وثيق.

٢- استعادته الرياض وبداية حكمه:

أدرك الشاب عبدالعزيز بن عبدالرحمن، بعد النجاح النسبي لتجربته الأولى في دخول الرياض، وتَأمُّله ما يحيط بالمنطقة من ظروف، أن الوقت قد

(١) وهي سنة ١٢٩٣هـ.

(٢) الزركلي، ج١، ص ص ٧٠ - ٧٢.

حان كي يَتولَّى مسؤولية إعادة حكم أسرته للبلاد. ومن هنا جاء إلحاحه الشديد على أبيه ومبارك بن صباح -فور عودته إلى الكويت- للسماح له بأن يبدأ بالخروج من هذه البلدة قائدًا لغزوات. وقد وقف أبوه ضد إلحاحه في بداية الأمر[1]. ولَعلَّ ذلك الموقف عائد إلى أن هذا الكهل، الذي خبر من مُرِّ التجارب أكثر مما خبر من حُلْوها، كان يرى أن الظروف لم تكن حينذاك مناسبة للحركة، وأن أَيِّ عمل عسكري يقوم به ابنه قد يُؤدِّي إلى نتائج مؤلمة لذلك الابن وأسرته. ومن المحتمل أن ما دار على أرض الصَّريف كان من العوامل التي كَوَّنت لديه ذلك الرأي. على أَنَّ عبدالعزيز كان يتراءى لذهنه ما دار في الرياض على يديه، لا ما دار على أرض الصَّريف ولم يحضره. أما مبارك بن صباح فكان أَهمَّ ما يشغله وجود ابن رشيد على مقربة من بلاده، يَتحيَّن الفرص للانقضاض عليها. ولهذا لم يكن غريبًا أن يقف موقف المُؤيِّد والمُشجِّع لقيام عبدالعزيز بنشاط عسكري[2]؛ أَملًا في أن يدفع ذلك النشاط ابن رشيد إلى صرف شيء من جهده واهتمامه لملاحقته. وهذا مما يُخفِّف الضغط على الكويت إن لم يزله كُلِّية.

وفي النصف الأول من عام ١٣١٩هـ نجح تصميم الملك عبدالعزيز وتأييد الشيخ مبارك بن صباح لذلك التصميم في إقناع الإمام عبدالرحمن للموافقة على خروج ابنه من الكويت غازيًا. وبعد أن تَهيَّا لهذا الابن ما تَهيَّأ من ركائب وأسلحة ومؤن، كان للشيخ مبارك اليد الطولى في تأمينها خرج من هناك ومعه عدد من أقربائه ومُؤيِّديه يُرجَّح أنهم لا يزيدون على الأربعين إلا قليلًا[3].

---

(١) الزركلي، ج١، ص٧٩.

(٢) الريحاني، ١٢١؛ ابن هذلول، ص٥٨.

(٣) هناك من يقول: إن عددهم كان يقرب من ستين رجلًا. ولعلَّ الذين خرجوا من الكويت كانوا كما ذكر في المتن أعلاه، فانضم إليهم قبل دخول الرياض عدد قربهم من الستين. وأسماء الجميع سترد ملحقة بهذا الجزء من الكتاب إن شاء الله.

ولم يرد الملك عبدالعزيز أن يَتوجَّه فور خروجه من الكويت إلى الرياض مباشرة. بل تَوجَّه إلى مضارب البادية؛ خاصة قبيلة العُجْمان، في جهات الأحساء. ولَعلَّ ذلك عائد إلى اعتقاده أن أنباء خروجه من الكويت ستصل بسرعة إلى الأمير عبدالعزيز بن رشيد، وأن هذا الأخير سيأخذ جميع الاحتياطات لئلا تقع الرياض في يد خصمه الجديد. فَفضَّل أن يكون تَحرُّكه في البداية بعيدًا عن هذه البلدة تمويهًا وحذرًا. وقد انضمَّت إليه فئات من قبيلة العُجْمان، كما انضمَّ إليه عدد لا بأس به من قبائل أخرى، مثل سُبَيْع والسُّهول وآل مُرَّة، حتى تجاوز من التفُّوا حول رايته ألف مقاتل[1]. وبدأ يغير على جماعات من قبائل مُعيَّنة، فحالفه النصر، ولفت إلى حركته الأنظار. وهنا أدرك الأمير عبدالعزيز بن رشيد خطورة نشاطه، فبذل جهودًا لدى العثمانيين، الذين لم يكونوا يَودُّون آل سعود أساسًا، والذين باتوا لا يَودُّون مبارك بن صباح؛ خاصة بعد أن ارتمى في أحضان بريطانيا. ولذلك أسفرت تلك الجهود عن منع كل من يقف مع عبدالعزيز آل سعود من دخول بلدان الأحساء والقطيف والتَّزوُّد بالأطعمة والمؤن منها. ورأى المنضمُّون إليه من رجال القبائل ما سوف يَتعرَّضون له من عقبات اقتصادية من جَرَّاء وقوفهم معه، فآثروا التَّخلِّي عنه، ومراعاة مصالحهم الخاصة[2]. وهكذا لم يبق معه في نهاية الأمر إلا أولئك الذين رافقوه من الكويت وعدد قليل من غيرهم[3]. فَتوجَّه بالجميع إلى منطقة يَبْرين الواقعة بين قطر والربع الخالي، ليرسم خططه المستقبلية بتُؤَدَة ورَويَّة.

---

(١) الزركلي، ج١، ص٨٠.

(٢) الريحاني، ص١٢٢؛ ابن هذلول، ص٥٩.

(٣) أغلب المصادر تذكر أنه لم يبق معه إلا الذين خرجوا بصحبته من الكويت. على أن الذكير (نسخة البسام، ص٢٤٦) يقول: إنه بقي معه غير أولئك حوالي عشرين رجلًا.

ولقد حاول الإمام عبدالرحمن بن فيصل، بعد أن رأى انفضاض القبائل من حول ابنه عبدالعزيز؛ أن يقنعه بالعودة إلى الكويت وعدم الاستمرار في محاولاته العسكرية. لكن ما حَلَّ بعبدالعزيز لم يزده إلا طموحًا وتصميمًا على مواصلة جهوده[1]. على أنه رأى أن الأسلوب الذي اتَّبعه لم يُجْدِه نفعًا، وأنه لا بُدَّ من عمل جريء مفاجئ، يحدث صَدىً بعيدًا في المنطقة كلِّها.

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان، سنة ١٣١٩هـ، انطلق عبدالعزيز بن عبدالرحمن بمن معه من يَبْرين صوب الرياض. ولما تجاوز منتصف الطريق بين المكانين أخبر رفاقه بهدفه. وواصلوا السير الحثيث؛ يُكنُّون نهارًا، ويُدلجون ليلًا. ولم ترخِ ليلة الخامس من شوال سُدُولها إلا وهم في ضواحي الرياض. ووضع عبدالعزيز خطة محكمة لدخولها، والاستيلاء عليها[2]. فقسم رجاله إلى ثلاث مجموعات: واحدة ترابط عند الإبل حتى الصباح. فإن حَلَّ الصباح ولم يأتها منه خبر فعلى أفرادها أن ينجوا بأنفسهم. والثانية- بقيادة أخيه محمد- تكمن في إحدى مزارع البلدة حتى تأتيها أوامره. أما الثالثة فتدخل البلدة بقيادته[3].

ولم يجد عبدالعزيز ومن معه صعوبة في الدخول إلى الرياض. ذلك أن أسوارها كانت مُهدَّمة، وأن عدد الداخلين إليها كان قليلًا لا يحدث ضجة ولا يثير انتباهًا؛ إذ لم يتجاوز السبعة[4]. واستطاع هؤلاء الطليعة أن يدخلوا بيتًا مجاورًا لبيت عامل ابن رشيد، عجلان بن محمد. فاستدعى الملك عبدالعزيز

---

(١) الزركلي، ج١، ص٨٣.

(٢) من المرجَّح أن عبدالعزيز؛ وهو الذي عُرف عنه حبُّه للمشورة، قد استشار من كان يراه أهلًا للاستشارة من رفاقه. على أن الرأي المتَّبع هو رأيه.

(٣) ابن هذلول، ص٦٠؛ الزركلي، ج١، ص ص ٨٩ - ٩٠.

(٤) المصدر الأخير نفسه، ج١، ص٩٠.

أخاه محمدًا ومن معه. فلما وصلوا إليه تَسلَّق هو ورفاقه الستة إلى بيت عجلان، لكنهم لم يجدوه فيه. فقد أخبرتهم زوجته أنه نائم في قصر المصمك عند رجال الحامية الرشيدية؛ وذلك لعدم اطمئنانه إلى الأوضاع المحيطة به، وأنه يأتي من ذلك القصر إلى بيته بعد طلوع الشمس. ثم التحق بالملك عبدالعزيز أخوه محمد بن عبدالرحمن ورفاقه، وانتظر الجميع خروج عجلان من المصمك في الصباح. ولما خرج انقضَّ عليه عبدالعزيز ورفاقه، فحاول العودة إلى داخل القصر، لكنهم تَمكَّنوا من مداهمة بَوَّابة ذلك القصر والدخول إليه. وقُتِل عجلان بيد عبدالله ابن جلوي، كما قُتِل عدد من أتباعه. واضطر باقي رجال الحامية إلى الاستسلام. وما إن تَمَّ ذلك حتى نودي في البلدة أن الحكم لله ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود[1]. وهكذا خطا هذا القائد خطوته الأولى لاستعادة الحكم السعودي في البلاد، وتوحيد أجزائها المختلفة. وبدأت الدولة السعودية الثالثة يوم الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ، الخامس عشر من يناير عام ١٩٠٢م. واندفع سكان الرياض يبايعون حاكمهم الجديد، الذي كانت بلدتهم عاصمة لدولة قادة أسرته من قبل. وكانوا - وهم يضعون أيديهم في يده مبايعين - يأملون أن تعود به إلى هذه البلدة مكانتها السياسية، وتنتعش حياتهم الاقتصادية.

وكانت العملية التي قام بها عبدالعزيز ورفاقه، والتي أَدَّت إلى استيلائه على مقاليد الأمور في الرياض، عملية جريئة ومحكمة. وكان الموقف يَتطلَّب تلك الجرأة وذلك الإحكام؛ إذ بدونهما كان من غير الممكن تحقيق ما تَحقَّق من نجاح. ولقد عَبَّر المؤرخون المَحلِّيون المعاصرون لحدوثها، ابن عيسى والبسام والقاضي، عنها بكلمة «سطا»[2]. وهي كلمة تعني العمل الجريء المفاجئ. ولَعلَّهم

(١) المصدر نفسه من أحسن الكتب التي فصَّلت الكلام عن تلك الحادثة، ج١، ص ص ٨٧ - ١٠٠.

(٢) ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث**، ص٢٠١؛ البسام، ورقة ١٦٩أ؛ القاضي، ص٨.

عَبَّروا عنها بهذه الكلمة، التي اعتاد المؤرخون النجديون في تلك الفترة وما قبلها أن يُعبِّروا بها عن عمليات حدثت في البلدان النجدية كثيرًا[1]، لأنها تشبهها من حيث وقوع الحدث بِحَدِّ ذاته بغض النظر عن ملابساته ونتائجه. على أن أَهميَّة تلك العملية تنبع من كونها بداية تَحدٍّ من شاب في العشرينيات من عمره لحاكم قَويٍّ لمنطقة واسعة، وكونها اللَّبنة الأولى لما قام بعدها من بناء شامخ تَمثَّل في تَوحُّد، أو توحيد، المناطق التي تَكوَّنت منها المملكة العربية السعودية المترامية الأطراف.

وكان الملك عبدالعزيز يدرك غاية الإدراك قوة الأمير عبدالعزيز بن رشيد. ولم تَغرَّه مشاعر فُتوَّته، أو تُلهِه نشوة انتصاره، عن أن يُعدَّ لكل خطر محتمل عُدَّته. فما إن استتب له الأمر في الرياض، حتى شرع في إعادة بناء أسوارها المُهدَّمة. ولم تَمرَّ خمسة أسابيع إلا وهذه البلدة مُحصَّنة كل التحصين[2]. وفي الوقت نفسه لم يجعل إخبار أبيه والشيخ مبارك بن صباح بما تَمَّ له من نصر مُجرَّد بشارة لهما؛ بل قرن ذلك بطلبه نجدة بقيادة أخيه سعد. وقد وصلت إليه هذه النجدة بالسرعة التي أَمَّل أن تصل بها.

*****

(١) لم تذكر المصادر النجدية تفصيلات تلك العمليات لأنه لم يترتَّب عليها ما ترتَّب على ما حدث في الرياض من نتائج.

(٢) الزركلي، ج١، ص١٢٣؛ ابن هذلول، ص٦٢.